

مشكله الصراع

بين الفلسفه و الدين

من الغزالي

و ابن رشد

الى الطوسى

و الخواجه زاده

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م

الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع

بناية الكومودور سنتر - الحمراء -

لبنان - بيروت - ص.ب ٦٣٨١/١١٣

تلفون ٣١٧٩٤٩

المحتويات

٩	١ - التمهيد
١٣	٢ - المدخل
٢٣	٣ - الالهيات :
٢٥	الباب الأول : العالم
٢٧	- الفصل الأول : قدم العالم
٦٧	- الفصل الثاني : أبدية العالم
٧٥	- الفصل الثالث : صدور العالم عن الله
٩٥	الباب الثاني : الله
٩٧	- الفصل الأول : الصفات الإلهية
١٢٥	- الفصل الثاني : معرفة الله للجزئيات
١٣٧	٤ - الطبيعيات :
١٣٩	- الفصل الأول : السببية
١٥٣	- الفصل الثاني : المعاد
١٦٧	٥ - خاتمة
١٧٥	٦ - تقييش ما كتب عن الطوسي والخواجه زاده
١٨٧	٧ - المصادر والمراجع
١٩٣	٨ - فهرس الموضوعات

لأثحة الرموز الواردة في الهوامش :

ج : جزء

د.ت . : دون تاريخ

را : راجع

ص : صفحة

ق : ورقة

قا : قابل ، قارن

لا : لاحظ

م.ن . : المرجع نفسه

م.ع . : المرجع عينه

١

تمهيد

قبل الخوض في أي بحث حول كتاب « تهافت الفلاسفة » ، الذي يجسد مشكلة الصراع بين الفلسفة والدين ، يجدر التذكير ، أنه بالإضافة الى كتاب « تهافت الفلاسفة » للغزالي ، و « تهافت التهافت » لابن رشد ، قد كتب في موضوع التهافت محققون آخرون .

فقد ذكر آغا بزرك في « الذريعة الى تصانيف الشيعة »^(١) ، كتاب « تهافت الفلاسفة » للشيخ الامام قطب الدين أبي الحسين ، سعيد بن هبة الله بن الحسن الراوندي ، المتوفى سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م . كما ذكر « تهافت الفلاسفة » للمحقق خواجه نصير الدين الطوسي المتوفى ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م ، وقال إنه تعرض فيه للرد على الغزالي ، ويُعبّر عنه بشرح تهافت الفلاسفة ، وهو لم يطبع بعد^(٢) . وذكر أيضاً كتاب « تهافت الفلاسفة » للخواجه زاده ، مصطفى بن يوسف ، المتوفى ٨٩٣ هـ / ١٤٧٨ م .

لكنه ثبت لدينا حتى الآن ، وجود كتابين باسم « تهافت الفلاسفة » بعد « تهافت » الغزالي ، هما : « تهافت الفلاسفة » أو « الذخيرة في المحاكمة بين الغزالي

(١) را : آغا بزرك ، الذريعة الى تصانيف الشيعة ، ج ٤ (مطبعة مجلس الشورى ، طهران ١٣٢٦ هـ) ، ص ٥٠٢ .

(٢) بعد التدقيق في هذه المسألة ، تبين عدم وجود كتاب باسم « تهافت الفلاسفة » لنصير الدين . وثبت كتاب « تهافت الفلاسفة » أو « الذخيرة » لعلاء الدين الطوسي . وحول التحقق من هذه المسألة ، يمكن الرجوع الى كتابنا الأول : الطوسي ، الذخيرة ، الفصل الثاني ، ص ٢٣ .

والحكماء» ، لعلاء الدين الطوسي ، و «تهافت الفلاسفة» للخواجه زاده . وقد تمّ تأليف الكتابين في الربع الأخير من القرن التاسع الهجري ، بأمر من السلطان محمد بن مراد خان فاتح القسطنطينية . ومما يذكر ، أن الخواجه زاده قد ألف كتابه في أربعة أشهر ، بينما فرغ الطوسي من تأليفه بعد ستة أشهر .

أما تهافت علي الطوسي ، المسمى بالذخر ، أو الذخيرة ، فقد أتمنا تحقيقه وتحليله في كتابين^(١) . وموضوعه المحاكمة بين الغزالي والفلاسفة . وهو أقرب لكونه شرحاً لتهافت الغزالي ، وليس محاكمة بين الغزالي وابن رشد كما يقول بروكلمان^(٢) ، لأنه لم يأت فيه على ذكر ابن رشد . ويعتبر تحقيق كتاب الذخيرة ونشره ، بمثابة الكشف عن شخصية جديدة من المحققين ، هو علاء الدين علي الطوسي ، الذي لم يتناوله أحد بدراسة من ذي قبل . كما أن مؤلفات الطوسي الأخرى^(٣) لم تحقق بعد ، وسنفرغ من تحقيقها ونشرها قريباً إن شاء الله .

وأما تهافت الخواجه زاده ، فوضعه كتهافت الطوسي تماماً ، فهو لم يحقق بعد ، وإن كان قد طبع بشكل بدائي بهامش تهافت الغزالي وابن رشد^(٤) . كما أن أحداً لم يتناول الخواجه زاده ، أو تهافته ، بدراسة مفصلة من قبل .

وبسبب التلازم التاريخي ، والظرفي ، بين شخصيتي الخواجه زاده وعلاء الدين الطوسي ، اللذين عاشا معاً في ظل السلطان محمد الفاتح وألفا تهافتيهما بأمر منه ، فقد وجب أن نتناول تهافت الخواجه أيضاً بالدراسة والتحليل . وقد وضعنا شيئاً من مضمونه في النقطة الرابعة من كل فصل من فصول هذه الدراسة (التقويم) ، حيث تمت مقارنته بباقي كتب التهافت . لكن ذلك لم يكن مفصلاً كما هي الحال مع

(١) الكتاب الأول «تهافت الفلاسفة ، أو الذخيرة في المحاكمة بين الفلاسفة والغزالي» ، لعلاء الدين الطوسي . (تحقيق وتقديم الدكتور رضا سعادة ، الدار العالمية للنشر ، بيروت ١٩٨١) .

الكتاب الثاني «مشكلة الصراع بين الفلسفة والدين» . وهو موضوع هذا البحث .

(٢) را : Brockelmann, G. A. L. (Brill, 1942) SII, 279

(٣) عن هذه المؤلفات را : الطوسي ، الذخيرة ، الفصل الأول ، ص ١٧ .

(٤) طبع على نفقة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، دون تاريخ .

الطوسي ، نظراً لضيق الوقت وحجم الدراسة . وقد تمّ بقدر الوسع استخلاص زبدة أفكاره ، ووضع لمحة عن سيرته في نهاية الكتاب^(١) ، على أمل العودة إليه مستقبلاً اذا لم يحل شيء دون ذلك .

يبقى أن نؤكد ، أن هذه الدراسة قد تناولت بشكل أساسي المولى علاء الدين الطوسي ، لإظهار منزلته بين أقرانه ، ممن كتب في موضوع التهافت .

وهي عبارة عن محاكمة بين كتب التهافت الأربعة ، التي للغزالي والطوسي والخواجه زاده وابن رشد . وذلك باعتبار الغزالي الأصل الذي تفرع عنه الطوسي والخواجه زاده . وباعتبار ابن رشد الممثل الفعلي للفكر الفلسفي الإسلامي ، ذي الجذور اليونانية ، والأرسطية بشكل خاص .

وبذلك عملنا على إبراز شخصية جديدة لها منزلتها في الفكر الإسلامي . انه المولى علاء الدين علي الطوسي^(٢) ، الذي تميّز في تهافته ، بالإضافة لقناعاته العقديّة وتوجهه الكلامي ، بأسلوبه المنطقي الدقيق وبطول باعه في الجدل والمباحثة .

(١) تقيّم ما كتب عن الخواجه زاده ، ص ١٨٢ .

(٢) للتعريف بعلاء الدين الطوسي ، تمّ تقيّم كل ما كتب عنه ، ووضعه في النقطة السادسة من محتويات الكتاب . را : ص ١٧٧ .

٢
المدخل

- | | |
|----|-------------------------------|
| ١٥ | ١ - الصراع بين الفلسفة والدين |
| ١٧ | ٢ - الأمر بتأليف الكتابين |
| ١٩ | ٣ - مقارنة شكلية مع الغزالي |
| ٢١ | ٤ - منهجية التحليل |

المدخل

١ - الصراع بين الدين والفلسفة :

العرب في جاهليتهم لم يشتغلوا بعلوم الفلسفة ، رغم ازدهارها في بلاد اليونان . ولم يظهر التفكير الفلسفي عندهم إلا بعد ظهور الإسلام ، فبرزت معه أهمية العقل والتفكير ، ونشأ علم الكلام للدفاع عن العقيدة بعد التسليم بها . ثم توطدت أركان الفلسفة بعد ترجمة الكتب ، ونقل الفكر اليوناني الى العربية^(١) .

أما أهل السنة ، فقد وقفوا من الفلسفة موقفاً سلبياً ، وتمسكوا بظاهر النص والاجماع . بينما ظهرت فرق أخرى تتركز بالعقل وتحتكم اليه . واحتدم الصراع بين نزعتين ، الدينية والعقلية ، تتمثل الأولى بالأشاعرة ، والثانية بالمعتزلة والفلاسفة المسلمين ، الى أن بلغ ذروته مع الغزالي وابن رشد ، في المشادة الفكرية بينهما في كتابي « تهافت الفلاسفة » « وتهافت التهافت » .

هذه المشادة لم تكن الحلقة الأخيرة في الصراع الدائر بين الفلسفة والدين^(٢) ، مع كونها الحلقة الكبرى . فلقد تبعها حلقات كثيرة أخرى تمثلت في الشروحات والهوامش والردود التي تناولت بشكل جزئي موضوعات « التهافت » ، والتي توجد في

(١) را : ١ - Henri corbin, Histoire De La philosophie Islamique (Gallimard, Paris, 1964), P 30.

٢ - ل . غرديه و ج . قنواي ، فلسفة الفكر الديني ، تعريب الأب الدكتور فريد جبر والشيخ الدكتور صبحي الصالح (بيروت ، ١٩٦٧) ص ٦٤ ، ٧٥ .

(٢) يقول ماجد فخري في تصديره لكتاب « تهافت الفلاسفة » ، ان هذه المشادة كانت الحلقة الأخيرة في الصراع . را : الغزالي ، تهافت الفلاسفة ، تحقيق الأب بويج (المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦٢) ، ص ٨ .

كتب كثير من المحققين والشراح المتأخرين ، أمثال فخر الدين الرازي ، ونصير الدين الطوسي ، وصاحب « المحاكمات » ، وجلال الدين الدواني ، والسيد الشريف وغيرهم^(١) .

وفي نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ، كتب كل من الخواجه زاده^(٢) (ت ٨٩٣ هـ / ١٤٨٧ م) والمولى علاء الدين الطوسي « تهافتاً » . وذلك بأمر من السلطان محمد بن مراد خان^(٣) (ت ١٤٨١ م) فاتح القسطنطينية .

هذان « التهافتان » لا يختلفان كثيراً عن « تهافت » الغزالي . فصاحباهما ينتميان جهاراً الى طائفة المتكلمين ، الذين يصفهم الخواجه زاده في مقدمة « تهافته » بـ « عظماء الملة وعلماؤا الأمة »^(٤) . إذ تعرضوا لكل ما زلت فيه أقدام الفلاسفة ، مما خالف الشرع أو لم يخالفه . وقد أشاد بالغزالي خاصة ، الذي من بينهم « ابتدع طريقة غراء ، واخترع رسالة عذراء ، في إبطال أقاويل الحكماء »^(٥) . ثم بين غرضه من تأليف كتابه فقال : « فنريد أن نحكي في هذه الرسالة من قواعدهم^(٦) الطبيعية والالهية ، ما أورده الامام حجة الاسلام . . . ثم نبطلها إرغاماً للمتفلسفة المبطلين ، واعظاماً لأهل الحق واليقين ، وانتقاماً من الذين أجرموا ، وكان حقاً علينا نصر المؤمنين »^(٧) .

أما المولى علاء الدين الطوسي ، فانه لم يبلغ هذا الحد من التعصب ، صحيح أنه أشاد بالغزالي ، « الامام الهمام ، قدوة الأئمة العظام ، مرشد طوائف

(١) عن هؤلاء ، را : الطوسي ، الذخيرة ، فهرس الأعلام والفرق ، ص ٣٩٥ .

(٢) مصلح الدين مصطفى بن يوسف البروسوي . را : تقيش ما كتب عن الخواجه زاده ، ص ١٨٢ .

(٣) أبو الفتح محمد بن مراد . عنه را : الطوسي ، الذخيرة ، فهرس الأعلام والفرق ، ص ٤٠٤ .

(٤) الخواجه زاده ، تهافت الفلاسفة (بهامش تهافت الغزالي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، د . ت .) ، المقدمة ، ص ٣ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٤ .

(٦) قواعد الفلاسفة .

(٧) م . ن . ص ٧ .

الأنام»^(١) ، وصحيح أنه لم يخرج من حيرته وتردده الأبعدما أمر « بلسان الألهام »^(٢) أن يتبع النص القاطع ، وأن الدلائل والمطالب النقلية لأرباب الملة لا مجال للقدح فيها والخروج عنها ، لأنها « شدد أركانها ، وشيد بنيانها ، بقواطع المعجزات وسواطع البينات »^(٣) ، لكنه شرط على نفسه أن لا يثبت في كتابه إلا ما ثبت عنده « بالقطع أنه الحق والصواب » ، وأن لا يميل عن جادة الإنصاف ، ولا يجيب « داعي التعصب » إن دعاه « الى الجور والاعتساف »^(٤) .

وفي معرض حديثه عن الفلاسفة يصفهم بالأذكىاء الأجلء ، الذين أوتوا من عند العزيز الحكيم فضل ذكاء وفطنة . وقد أنصف منهم من قال إنه لا سبيل في الإلهيات الى اليقين ، و « نقل هذا عن فاضلهم أرسطو » . أما من حسن ظنه بهم حتى برأهم عن كل زلل ، فهذا « إفراط لا يليق بشأنهم ، بل بشأن الأنبياء . . . وهم وإن كانوا أذكىاء أجلء ، فمن غيرهم أيضاً رجال »^(٥) .

هذا موقف للطوسي من الفلاسفة معتدل نسبياً ، ولا زيف فيه ، على الأقل نسبة الى الخواجه زاده ، الذي انتقد الغزالي فعلاً في مواضع كثيرة من كتابه ، في حين أنه ذكر في مقدمته أنه سيشير فقط الى ما وقع منه من سهو القلم : « وذلك والعياذ بالله ليس ازدرء به بابرار هفواته ، واني معترف بأني مغترف من فضالته . . . ومقتف بآثاره . . وما أحمل ذلك إلا على الغلط من الناسخ لا الراسخ . . . »^(٦) .

٢ - الأمر بتأليف الكتابين :

عاش علاء الدين الطوسي والخواجه زاده في كنف السلطان مراد خان ، ثم ابنه السلطان محمد بن مراد ، في ظل ظروف سياسية واجتماعية واحدة . وعهد اليهما

(١) الطوسي الذخيرة، ق (٢-ب) ، ص ٥٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ق (٣-أ) ، ص ٦١ .

(٣) الطوسي ، الذخيرة ، المقدمة ق (٣-ب) ، ص ٦٢ .

(٤) الورقة نفسها .

(٥) م . ن . ، المقدمة ، ق (٥-أ) ، ص ٦٨ .

(٦) الخواجه زاده ، تهافت الفلاسفة ، المقدمة ، ص ٥ .

بالتدريس في مدارس القسطنطينية ، فبلغا مكانة رفيعة ، حتى أن السلطان نفسه كان يحضر مجلسيهما ويدرس عندهما . وقد أمرهما السلطان محمد بن مراد أن ينظرا في « تهافت » الغزالي ، ويؤلف كل واحد رسالة على مثاله . فشرع كل منهما بتأليف « تهافته » إثر حيرة وضياع .

قال الخواجة زادة : « ثم اني أمرت من جناب من تجب طاعته .. بأن أملي كتاباً على مثالها^(١) ، وأنسج ديباجاً على منوالها ... فبادرت مع قلة البضاعة وقصور الباع في الصناعة ، وتوزع البال وتشتت الحال ، وتراكم الأشغال^(٢) . وتخلل هذا التصريح مديح بالغ للسلطان ، يقول فيه : « فالسكوت عن مدحه مدحه ، والاقرار بالعجز عن وُصْفِهِ وَصْفُهُ^(٣) .

أما الطوسي فكان أشد حيرة وتردداً . وحاله هذه تعكس صعوبة الموضوع والتخوف من الخوض في الالهيات من جهة ، كما تعكس حالة الارهاب والتسلط الذي كان يعيش في ظله من جهة أخرى ؛ شأنه في ذلك شأن جميع فقهاء السلاطين . قال في مقدمة « الذخيرة » : « إذ الأمور الالهية عويصات تتأبى أن تستقل بادراكها عقول البشر .. ولما شرفني الله بخدمة العلماء ، ويسر لي الاطلاع على بعض حقائق كلام الأذكياء ... كان برهة من الزمان يتلجلج في صدري ، ويتخالج في قلبي ، أن أكتب في المسائل الالهية .. وكنت أبقى محروماً عن هذا المرام ، الى أن أشار اليّ مولانا ومولى الثقلين ... أن أنظر في الرسالة المسماة بتهافت الفلاسفة ، التي ألفها الامام الغزالي ... وأكتب على أسلوبه ... فشرعت مع وهن البنى وضعف القوى ، وتوزع البال وتشتت الحال ، لأسباب لا أبوح إلا بواحد منها : هو أني كنت إذ ذاك متجاوزاً منتصف العشر التي هي معترك المنايا ...^(٤) .

إذن بالاضافة الى شيخوخته ، لا يستبعد أن يكون خضوعه المرغم للسلطنة ،

(١) مثال رسالة الغزالي « تهافت الفلاسفة » .

(٢) الخواجة زاده ، تهافت الفلاسفة ، ص ٤ .

(٣) الصفحة نفسها .

(٤) الطوسي ، الذخيرة ، ق (٣ - أ) ، ص ٦١ .

واضطرابه للتزلف للسلطان ، من هذه الأسباب التي لا يبوح بها . لقد قال في مديحه : « سلطان سلاطين العالم . . . خليفة الرحمن ، صاحب الزمان . . . أبد الله تعالى لواء خلافته معقوداً بالسعود ، وربط أطناب خيام سلطنته بأوتاد الخلود . . . ومثل هذا الدعاء عند الملك المعبود غير مردود»^(١) . أما الخواجه زاده فقد مدح ولم يتذمر ، ولربما كان أقرب الى السلطان من الطوسي ، وأكثر حظوة منه برضاه . ولا يبعد أن يكون قد حصل بين الخواجه والطوسي تنافس في حقل العلم والسياسة ، فاعتزل الأخير السياسة^(٢) ، وترك المناصب التي تزيد من ارتهانه للسلطان .

وهذا ما يفسر ترك الطوسي لبلاد الروم ، وعودته الى تبريز في بلاد العجم ، بعد الفراغ من تأليف كتاب « الذخيرة » ، اذ فضلوا كتاب الخواجه زاده على كتابه ، فزاد السلطان في عطاء الخواجه وميَّزه . لكن من يقرأ الكتابين لا يجد مبرراً لتفضيل الخواجه زاده ، هذا اذا لم يلزم العكس .

٣ - مقارنة شكلية مع الغزالي :

الموضوعات نفسها التي طرحها الغزالي في « تهافت الفلاسفة » ، بحثها الطوسي والخواجه زاده في « تهافتيهما » ، إنما بزيادة تفصيل أحياناً ، واختلاف في الطريقة أحياناً أخرى ، إضافة للاستشهادات بأعمال المحققين ممن جاء بعد الغزالي .

قسم الخواجه زاده كتابه الى اثنين وعشرين فصلاً ، بالإضافة لمقدمة بدايتها : « توجهنا الى جنابك ، وقصدنا نحو بابك يا واجب الوجود . . . »^(٣) ؛ وخاتمة تابعة للفصل الثاني والعشرين ، هي دعاء الى الله وتضرع ، دون أي اشارة لتكفير الفلاسفة ، أو لتصنيف مفاهيمهم بين الحق والباطل كما فعل الطوسي . فالخواجه

(١) الطوسي ، الذخيرة ، ق (٢ - ب) ، ص ٥٩ .

(٢) م.ن. الفصل الأول ، ص ١٥ .

(٣) الخواجه زاده ، تهافت الفلاسفة ، ص ٢ .